المجلة
العربية
مجلة الثقافة العربية
403

- الشعراء
يرسمون صورهم بالكلمات

- سينما القسوة
بين حجر أسود وريجي

الأغنية العربية الجادة

أحلام النخبة بعيداً عن بعرور وأبو الليف

هل أضحت الحداثة جزءاً من التراث الفكري الإنساني؟

محمود الهايشة
- مصر -

هذا ما حاول الكاتب الأستاذ فاروق حجّي مصطفى من سوريا الإجابة عنه، في مقاله الذي نشرته مجلتنا الغراء «المجلة العربية» العدد (401) جمادى الآخرة 1431هـ، تحت عنوان «إشكالية التراث والحداثة»، فقد تناول بشيء من الشرح والدمج والتحليل لمفهومي التراث والحداثة، وفرق بين الحداثة الغربية والعربية، من حيث المكان والزمان والأسلوب؛ وتعرض لتقسيمات الحداثيين العرب، وتوصل إلى أن هناك اختلافاً بين حداثتنا نحن العرب عنهم، كذلك يختلف مفكرونا الحداثيون عن مفكريهم. فحاجتنا إلى الحداثة كحاجتنا إلى التراث فلا يمكن الانكفاء إلى الماضي والعيش فيه في ظل هذا الزخم من التطورات، فمعرفة اليوم، تراث الغد، فلا يوجد حضارة دون تراث.

وقد بدأ الدكتور حسن مدن من البحرين، مقالته «الحداثة ليست نقيض القدامة»، في نفس العدد يونيو 2010، بعبارة اعتبرها من المضحكات المبكيات حيث قال: «اليابان أرسلت في القرن التاسع عشر بعثة إلى مصر لتقصي أسباب النهضة فيها في زمن محمد علي باشا، واليوم يتم التحدث عن المعجزة اليابانية»!؛ وأضيف لتلك العبارة «بل ونرسل باحثينا اليوم لليابان للحصول على الدكتوراه من اليابان»!؛ وقد خلص الكاتب الكريم إلى أن المثقف العربي الذي نهل الحداثة غالباً من مصادر غربية لم يكلف نفسه عناء البحث عمّا في تراثه من مساهمات فكرية وإبداعية هي بمقاييس ذلك الزمان حداثية، وبالرغم من ذلك فاليوم الظروف مهيأة لإشاعة ثقافة الإصلاح تفاديا لتكرار الفشل في مشاريعنا النهضوية التقدمية.

وعطفا على ما طرحه الكاتبان من آراء في مسألة مهمة جدا وشائكة، فالأمر يتعلق بفعل ثقافي أو بفعل إبداعي أو

إشكالية التراث والحداثة

فاروق حجّي مصطفى
- سوريا -

بحركة نقد، يشق طريقه عبر أرض تحتاج إلى رؤية جديدة كي يثمر هذا النهر شيئاً، هذه المسألة متعلقة بهذا المفهوم والمفهوم المضاد، الفعل والفعل المضاد، الفهم والفهم الخاطئ أحيانا، الفعل والتدقيق على هذا المشهد، مسألة الحداثة في الإبداع، أزعم أنها مهمة بل ومهمة جدا، لكن من يتناول الإبداع بكافة أشكاله سواء أكان إبداعاً فنياً أم تشكيلياً أم شعرياً أم مسرحياً، لا يمكن أن نكون ضد مبدأ الحداثة، ولكن عن أي حداثة نتحدث؟!

هنا يكون السؤال شائكاً، ويكون السؤال لغزاً محيراً أحياناً، لكنه يظل هو السؤال الذي يفتح أبواباً للمعرفة، هنا السؤال. لا يمكن أن تطلق المعرفة أبواب ذاكرتنا أو أبواب وجداننا؛ لذلك أزعم أن استقبالنا للحداثة ورؤيتنا لمسألة تطبيق الحداثة في منظومة الإبداع بكليتها سواء كانت إبداعات مسرحية أم تشكيلية أم روائية أو شعرية، وبما أنها أتت من الشاطئ الآخر أو من النهر الآخر، فالتبست المسائل ما بين هذا الواقع، هل تلائمنا هذه الحداثة التي أتت من شمال المتوسط؟

فإذا كانت تناسبنا، فهل نحن حرثنا الأرض بشكل جيد حتى نمنح هذه الحداثة أرضاً خصبة كي تنبت فيها؟؛ وإذا كانت لا تتناسب معنا، فما الذي فعلناه تجاهها؟؛ هل تعاطيناها بكليتها أم شكلناها حسب واقعنا المتاح؟، كلها أسئلة شائكة ومحيرة، ولكن يبقى شيء واحد مهم، وهو الإبداع في النهاية، أولاً وأخيراً ليست الإجابة عن السؤال، ولكن الإبداع دائماً هو طرح للسؤال؛ هو استنبات أو استنجاب لهذا السؤال الذي يفتح باب المعرفة.

حول هذه الإشكالية لابد من وجود نقاد لهم رؤية محايدة، يمتلكون رؤية محايدة تماماً، ليست محايدة في مسألة النقد ولكن محايدة في مسألة عدم الانتماء إلى فئة بعينها، ومن ثم تكون المناقشة وتكون الرؤية غالباً ما تصطدم بالأخرى، أو تشاكس أو تتماس مع مصالح البعض، ربما اختلفت الرؤى والآراء النقدية لما يحدث الآن على الساحة الإبداعية اليوم.

وإذا أخذنا واقع الفن التشكيلي وتيارات الحداثة الجديدة كمثال، فيمكن للفنان التشكيلي أن يُحدث في أسلوبه ويُحدث في أدواته ويُحدث في خاماته، ولكن في النهاية هو يحمل هويته وقوميته، وفنه الذي تميز به، فلابد أن يكون للفنان رسالة إبداعية، مع مراعاة أن يتعلم صاحب الموهبة الفنية أولاً أبجديات الفن، وفي النهاية يقوم بما يريده، بعد أن يكون قد هضم هذا التراث؛ نعم هناك حداثة، ولكن إلى أين تذهب بنا هذه الحداثة؟!، وما هي أدواتها؟؛ فلابد للفنان الذي يمتلك الموهبة في الفن التشكيلي أن يكون لديه محصلة ثقافة كبيرة تؤهله لكي يدخل هذا المجال، وفي الوقت نفسه يحافظ على هويته، حتى إذا ذهب عمله الفني لأي مكان، يمكننا أن نتعرف من خلاله على هوية هذا الفنان ونقول إنه ينتمي لتلك البلد أو ذاك، لأننا إذا طمسنا هويتنا نكون كالذي استورد هذه الأعمال من الخارج، وضيعنا هويتنا وتراثنا!